خيبة أمل

النظام الشيوعي.. نظام لا يتمشى مع طبيعة النفس البشرية، لأنه يجعل الحكم لطبقة دون سائر الطبقات، هي طبقة العمال، ولأنه يحرم الإنسان من الملكية الخاصة، وهي نزعة طبيعية في النفس البشرية، ولأنه يلغي الأديان التي تغذي الجانب الروحي في الإنسان، ولأنه يرى أن التاريخ يسيير «بحتمية» لا يعدوها، مع أن التاريخ تؤثر في سيرة قوى اجتماعية واقتصادية وروحية وبشرية.. لا تجعله في صعود واضح دائماً..

لهذا.. انهارت الشيوعيّة في الدول الأوروبيّة الشرقية ثم انهارت في روسيا نفسها، أو هي في طريقها إلى الانهيار..

أما في الصين.. فهي ما تزال قائمة.. وقد سمعت من أحد الصينيين الحكاية التالية:

إحدى الشركات الصينية التي تتعامل بالألبان، وفيها ثلاثة آلاف عامل.. قررت أن تجرب الديمقراطية في تعيين مدير الشركة ومساعديّة.. فلا يقوم مجلس الإدارة بتعيينهم.. وإنما تَجْعل العاملين من إداريين ومهندسين وعمال فنيين وعمال عاديين..

يختارون المدير والمساعدين من بينهم عن طريق الانتخابات.

ستون شخصاً رشحوا أنفسهم لهذه المراكز الثلاثة.. والغريب أن دعاية كل واحد تتشابه إلى حدّ كبير مع دعاية الآخرين.. كل منهم كان يزعم أنه إن نجح – مديراً – أو مساعداً للمدير.. سيكون الشخص المدافع عن مصالح العمال أمام مجلس الإدارة... سيطالب بزيادة الأجور وتقليل ساعات العمل، وبضمانات للعامل، إذا أصابه مكروه.. وإلى جانب هذه المطالب العامّة.. استقل كل بضعة أشخاص بوعد خاص، كل فرد يقدمه دون ارتباط مع الآخرين.. إلا ما ندر، بعضهم يعد بتحسين أوضاع العيادات، بعضهم يعد بتحسين نوعية الكتب في المكتبات، وبعضهم يعد بتحسين نوعية الغذاء... بل تَطَرق بعضهم ووعد بأنه سينشئ مكتباً – للزواج – يعرض فيه الشاب أو الفتاة رغبته في الزواج والمواصفات التي يريدها في الجنس الآخر، ثم يقوم المكتب بالتوفيق بين المتجانسين تبعاً لرغباتهم، بل تطرقت جماعة تكون كتلة بأنها ستعمل على فتح ناد ليلي يستجيب لطلبات العمال جميعاً ويقدم لهم غذاء روحياً عالياً...

لم تطل مدّة الدعاية.. كانت أسبوعاً واحداً، نظراً لسهولة الوصول إلى تجمعات العمال.. ثم تم الانتخاب ففاز ثلاثة طبعاً، وهم الذين أخذوا أكثر الأصوات، الفائز الأول في الخمسين، والفائز الثاني في الخامسة والأربعين، والفائز الثالث في الثلاثين..

تسلم الثلاثة مراكزهم.. وأحس العاملون في الشركة بنشوة كبيرة فلأول مرة يدير شؤونهم أناس منهم ينتخبوهم انتخاباً، ويعلقون عليهم آمالاً كبيرة.. فقد تصبح هذه الشركة أسعد الشركات حظاً في الصين كلها، وقد تتبعها شركات أخرى عندما ترى النتائج الباهرة التي تتحقق بفضل الديمقراطية.

بعد مضي شهر.. بدأ كل من المسؤولين الثلاثة يفكر تفكيراً مغايراً عما كان عليه عندما رشح نفسه لتولي المسؤولية.. أخذ كل من الثلاثة يقول في نفسه: إذا مضيت أدافع عن مصالح العاملين أمام مجلس الإدارة.. فإن المجلس لن يتعاون معي.. لن يتعجل في تقرير زيادة لي، بل لعله يعزف عن فكرة الزيادة نهائياً، ولن يضمني إلى عضويته، باعتباري على اطلاع كاف على شؤون الشركة.. والعضوية ذات قيمة مادية ومعنويّة.. ماذا يفعل لي العاملون إذا حملت السلم في العرض، ومضيت أدافع عن حقوقهم، وأحاول الوفاء بما وعدتهم به؟.. لا شيء لا شيء.. لكن التعاون مع مجلس الإدارة فيه أشياء وأشياء..

بدأ الثلاثة.. كل على انفراد يطلق من التصريحات والأقوال ما يدل على أنه يؤيد مجلس الإدارة في كل ما يقول ويفعل، وتتابع ذلك من كلّ منهم... فأصبحوا يتبارون بالتقرب من مجلس الإدارة في القول والعمل..

في مطلع الشهر الآخر.. قرر مجلس الإدارة ضم اثنين إلى

عضويته.. المدير وأحد المساعدين...

دَهِشَ العاملون لذلك.. وأحسوا بأن المدير ومساعديه نقضا العهد الذي قطعاه على نفسيهما... وان الكسوف على الوجوه، ثم تبعه شعور أن هذا العهد الحالي ليس خيراً من العهد السابق إن لم يكن أسوأ.. على الأقل من الناحية الأخلاقية..

وماتت التجربة في مهدها بعد أن كان يؤمل لها أن تعم جميع الشركات في الصين على كثرتها وضخامة حجمها.. وبذلك.. خسرت البشرية فلو نجحت التجربة لكان يمكن أن تعدل الصين عن الاشتراكية كما عدلت عنها روسيا.

openkandl.com